Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 53, No. 9, 2026, 10142

Deanship of Scientific Research

Pragmatics of Autobiography: Biographies of Taha Hussein, Zaki Naguib Mahmud, and Ibn Khaldun as Models

Ali Ben Abdessalem Ben Abdallah*

Arabic Department, Faculty of Letters and Human Sciences of Sousse, University of Sousse, Tunisia.

Received: 20/12/2024
Revised: 11/1/2025
Accepted: 10/3/2025
Published online: 24/6/2026

* *Corresponding author:*
benabdallahali2@gmail.com

Citation: Ben Abdallah, A. B. A. (2026). Pragmatics of Autobiography: Biographies of Taha Hussein, Zaki Naguib Mahmud, and Ibn Khaldun as Models. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *53*(9), 10142.
https://doi.org/10.35516/Hum.2026.10142

Abstract

Objectives: This research aims to advance the study of autobiography by moving beyond traditional questions of credibility, autobiographical contract, and imagination. Instead, it proposes a new perspective that considers the communicative aspects of autobiography, establishing a deliberative approach to literature. This shift has become necessary with the expansion of sociolinguistics into literary discourse and criticism.

Methods: The research consists of an introduction and two main sections that highlight the contradictions between the prevailing academic approach to biographical studies and the proposed approach. It examines three Arab autobiographical models: Taha Hussein, Zaki Naguib Mahmud, and Ibn Khaldun.

Results: The primary concern of autobiographers is not merely credibility, autobiographical contracts, or imagination, but rather communication with their readers, through which they achieve their goals in writing and reading.

Conclusions: Autobiography presents contradictory challenges such as fiction, credibility, subjectivity, alterity, writing, and contractual agreements. However, approaching autobiography from a different perspective can contribute to its scholarly development. It is necessary to break free from research frameworks constrained by genre classifications and repetitive conclusions. Pragmatics offers a new horizon by emphasizing the interactive relationship between writers and readers, allowing for the transmission of ideas and the fulfillment of authorial intentions. This perspective enriches literary studies, liberating them from rigid genre constraints, and fostering greater reader engagement in interpreting autobiography.

Keywords: Autobiography, pragmatics, intentions, interaction, implications.

تداوليّة السّيرة الذّاتيّة سيرطه حسين وزكي نجيب محمود و ابن خلدون نماذج

علي بن عبد السّلام بن عبد الله*

قسم العربيّة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، جامعة سوسة، تونس.

ملخّص

الأهداف: يهدف هذا العمل إلى محاولة تطوير مباحث السّيرة الذّاتيّة وذلك بالإعراض عن طرح نفس الأسئلة مثل الصّدقيّة، والعقد السّير ذاتيّ، والتّخييل، واقتراح رؤية جديدة تراعي الجانب التّواصليّ في الأثر السّير ذاتيّ، وتساهم في إرساء مقاربة تداوليّة للأدب أصبحت ضروريّة بعد انفتاح اللّسانيّات الاجتماعيّة على الأقاويل الأدبيّة وعلى النقد.

منهج البحث: تضمّن البحث مقدّمة ومحورين أساسيّين يلخّصان مظاهر الافتراق والتّناقض بين النّمط الدّراسيّ السّائد في مباحث السّيرة والنّمط المقترح الذي هو نمط تداوليّ نحاول تطبيقه على نماذج سيريّة عربيّة ثلاثة لطه حسين، وزكي نجيب محمود، وابن خلدون.

النّتائج: أهم نتيجة نصل إليها من هذا البحث هي أنّ كاتب السّيرة الذّاتيّة لعلّه لا يفكّر في قضايا الصّدق والعقود رغم أنّه يسم بها سيرته، ولعلّ أهمّ ما يشغل باله هو تواصله مع قرّائه، وجملة المعاني المقصديّة التي يحاول إيصالها إليهم، وهذا الأمر يشرّع لقراءة تداوليّة لهذا النّوع الأدبيّ المخصوص.

الخلاصة: دُرج عند البحث في السّيرة الذّاتيّة على طرح الإشكاليات المألوفة مثل التّخييل، والصّدقيّة، والذّاتيّة، والغيريّة، والعقود الكتابيّة، ومدى احترامها، ولكن دراسة السّيرة من وجهة نظر أخرى قد تفيد في تطوير مباحث هذا الجنس الأدبيّ؛ لأنّ مواصلة تناوله بالتّركيز على مباحث التّصنيف الأجناسيّ قد لا تضيف شيئا مهمّا إلى الدّرس الأدبيّ، وأنّه لا بدّ من فتح آفاق أخرى يمكن أن تغني الأدب والنّقد نراها في التّداوليّة على أساس أنّ الأعمال الأدبيّة تتيح التّفاعل بين كتّابها وقرّائها، وضمن هذا التّفاعل تمرّر الأفكار وتحقّق المقاصد من الكتابة، وتتوفّر للقارئ فرصة المساهمة في تحديد دلالات الأثر السّير ذاتيّ.

الكلمات الدالة: السّيرة، التّفاعل، المقاصد، الكاتب، القارئ.

© 2026 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المقدّمة:

للسيرة الذّاتيّة قضاياها البحثيّة التي تتميّز بها عن أنواع الأدب الأخرى، والتي أصبحت علامات بحثيّة وعلميّة، كما أصبحت أسيجة تمنع كلّ تجديد مثل قضيّة التّجنيس، وقضيّة الصّدقيّة، وقضيّة العقد السّير ذاتيّ؛ فلا بدّ من تخطّيها، وفتح آفاق أخرى تغني المبحث وذلك بمحاولة إقرار مقاربة حداثيّة لهذا النّمط تستلهم توجّهات لسانيّة حديثة، نعني التّداوليّة واتّصالها بالأدب من أجل إدراك أشمل لدلالات الأقاويل الأدبيّة عبر اهتمامها بالمقاصد، والخفيّ من المعاني، ما نسعى إليه في هذه الورقة التي ندرس فيها شذرات من سير طه حسين، وزكي نجيب محمود، وابن خلدون، وقد اخترنا أن تكون المدوّنة متنوّعة حتى تكون النتّائج أكثر شمولية، وبسبب التّنوّع الكبير في هذا النّوع الأدبيّ؛ إذ ربّما كانت السّيرة ذات تلوين علميّ كما عند نجيب محمود، أو ذات تلوين إبداعيّ كما عند طه حسين، أو ذات تلوين توثيقيّ كما عند ابن خلدون، ولكن التواصليّة والمقصديّة فيها ثابتتان، ثم إن اعتماد سير من أزمان مختلفة يعمّق هذا التّوجّه التعميميّ الذي نتّخذه لبحثنا.

1- السّيرة الذّاتيّة وقضاياها:

السّيرة الذّاتيّة هي جنس أدبيّ سرديّ له خصائصه التّمييزية، وقد جاء في تعريفها أنّها "قصّة تذكّريّة نثريّة يروي فيها شخص حقيقيّ وجوده الخاصّ مركّزا فيها بالخصوص على حياته الفرديّة وعلى تكوين شخصيّته" (Lejeune, 1975, p14)، وقد عُدّت أسلوبا كتابيا حديثا تبلورت ثوابته في عصر النّهضة الأوروبيّة (انظر: شرف، 1992، ص33 وما يليها)، واعتبر روسو مؤسسا له؛ إذ يقول: "سأنجز عملا لا مثيل له إطلاقا ولا أحد أنجز مثله. أريد أن أقدّم للنّاس رجلا على حقيقته، وهذا الرّجل هو أنا"، (Rousseau, 1998, p3) ، ولكن هذا لا يعني انتفاءه عند القدامى؛ فقد كتب القدّيس أوغسطين (354 م-430 م.) "كتاب الاعترافات" و"هو أقدم سيرة ذاتية، ولا يزال بلا منازع باعتباره سجلاّ صادقا وحميما لروح عظيمة وتقيّة مكشوفة أمام الله"، (The confessions of St Augustin, 1909, p4)، وفيه فصّل القدّيس مسيره من الاعتراف بعظمة الله إلى تكريس الحياة له مرورا بفترات مجاهدة أمراض الإنسان، وشرور المجتمع (انظر: المبخوت، 1992، ص18-19)، وهذا كذلك لا يعني انتفاءه في ممارسات النّاس البسيطة والعفويّة مثل رسم بعض لحظات من الحياة على جدران الكهوف قديما، أو الكتابة في الدّفاتر والأوراق حديثا، ومؤكّد أنّ هذا التّدوين أصبح أكثر يسرا بتطوّر صناعة الورق والطّباعة والنّشر، وبعد ذلك بالنّهضة الإلكترونيّة التي فتحت لصاحب السّيرة آفاقا أوسع وإمكانيّات هائلة في طريقة عرض سيرته عبر جمع القول بالصّورة والصّوت والرّمز، وعبر أخذ المضمون السّيريّ المغرق في الزّمن بالاختزال الشّديد بحيث يمكننا أن نتحدّث عن سير ذاتيّة جزئيّة: سير يوم أو شهر أو سنة، وسير مشهديّة أو تركيبيّة.

تثير السّيرة الذّاتيّة إذن كثيرا من الإشكاليات التي أهمّها وجهاها المتنافران، التّاريخ والحكاية؛ فهي حقيقة وخيال في الوقت نفسه، واقع ووهم، وهي كذلك ماض وحاضر، وربّما يلحق بهما المستقبل متى جمعنا بين الفعل الكتابيّ وحدث القراءة، وبين المنجز من القول والتّلقّي التّأخّريّ، ويمكن اختزال قضايا السّيرة المهمّة في قضيّتين أصبحتا مركز الاهتمام البحثيّ فيها بما عطّل كلّ تطوير في درسها، وهما الصّدقيّة والعقد السّير ذاتي.

1-1- قضيّة الصّدق في السّيرة الذّاتيّة:

جعلت الدّراسات قضيّة الصّدق في الخطاب السّير ذاتيّ مركزا بحثيّا رئيسيّا. قال عبد العزيز شرف: "السّيرة الذّاتيّة تعبير عن أهمّ مظاهر الحياة الشّخصيّة لكاتبها، وهي حياة لا ينفصل فيها الدّاخل عن الخارج" (شرف، 1992، ص18)، ودرج كتاب السيرة على الوعد بالصدقيّة؛ فقال روسو مثلا: "هذا ما فعلته، وهذا ما فكّرت فيه وما كنته. لقد قلت الحسن والرّديء بنفس الصّدق" (Rousseau, 1998, p18)، وقال طه حسين: "ما أكثر ما تحدّثت بهذا الحديث إلى الذين قرؤوا هذا الكلام؛ فمنهم من صدّقه ومنهم من أنكر، وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحقّ" (حسين، 1999، ص8)، غير أن هذا "البحث عن الصّدق المحض مستحيل لأسباب تعود إلى قصور الذّاكرة، أو تعمّد الكاتب إغفال بعض الحقائق، أو تحريفها، أو حياء الكاتب [...]، أو الرّقابة الطّبيعيّة للعقل، أو امتزاج الواقع بالخيال" (هياس، 2001، ص113)، ولأجل ذلك فإنّ "البحث عن التّطابق المفترض بين الوقائع كما هي في الواقع وبين أسلوب عرضها في النّص السّير ذاتيّ أمر غير ممكن لأسباب تتعلّق بآلية عمل الذّاكرة وما يعتريها من حذف أو نسيان، أو إضافات، أو تعديلات من جهة، وعدم تمكّن الكاتب السّير ذاتيّ من التّخلّص من الحاضر" (هياس، 2001، ص130).

لا يمكن الحكم دائما بصدق صاحب السّيرة؛ لأنّ هذا النمط الأدبيّ يقع في مفترق الطّرق بين الحقيقة والخيال، وبين التّاريخ والواقع، وبين الماضي والحاضر، وبين التّوثيق والتّخييل، ولأنّه متغيّر الخصائص ووسائل التّناول بحسب ما يُختار من حقيقته، ولأنّه يفتح القول في التّداخل الأجناسيّ الذي صورته تعدّد الذّات؛ فالذات في السّيرة الذّاتيّة هي في نفس الوقت الأنا في لحظة التّكلّم، وهي أنا منتمية إلى الموضوعيّ التّاريخيّ، شخصيّة الماضي الذي قطعت صلته بوقائع الحاضر، وهي الشّخصيّة التّخييليّة، العنصر التكوينيّ للقصّة ذلك الجنس التّخييليّ الخاضع لمجموعة من القواعد التي حدّدها جينات في إطار نظريّة بنيويّة (انظر: موشلر، وريبول، 2010، ص455) أكّدت هذه القطيعة بين الأزمان في السّرد، وهذا التّمايز بين الشّخص والشّخصيّة في الأثر السّرديّ، وجعلت الرّاوي عنصرا سرديّا تخييليّا؛ فالسّرد يتميّز فيه المؤلّف عن السّارد، ويتأسّس على مفهوم وجهة النّظر، وطبعا هذا لا نجده في الخطابات ذات البعد التّوثيقيّ أو التّأريخيّ (انظر: موشلر، وريبول، 2010، ص458)

إنّنا نعتقد أنّ مواصلة إثارة هذه القضيّة عند تناول أثر سير ذاتيّ لا يمكن أن يطوّر مباحثها بسبب ما تقدّم ذكره من التّداخل والتّشعّب الذي لا يمكن بأيّ حال الوصول إلى قول فصل فيه، وكذلك بسبب إيماننا بانتفاء الصّدق في الكتابة عموما سواء أكان الأثر توثيقيّا أم تخييليّا؛ ولذلك نرى أنّه من الواجب الالتفات إلى قضايا أخرى نرى أنها أكثر أهمّيّة مثل قضيّة تواصليّة الأثر السّير ذاتيّ، وقضيّة كثافة الخطاب السّير ذاتيّ وعمقه، وقضيّة دور القارئ عند تلقّيه الخطاب المحمول بالسّيرة، وقضية فكرة الكاتب عن قارئه عند كتابة أثره، وأهدافه من عمله الإبداعيّ هذا، وهل هو يتكفّل وحده بتحقيق تلك الأهداف أم ينخرط في لعبة تبادل للأدوار وتفاعل بينه وبين قارئه من أجل تحقيقها، فيكون قارئا تفاعليّا بالاستناد إلى خصوصيّات التّواصل بينه وبين كاتبه بالنّصّ، وإلى خصوصيّات السّياق الجامع بينهما؟.

2-1- قضيّة العقد السّير ذاتيّ:

العقد السّير ذاتيّ هو إظهار امتلاك الأثر ووسمه، وقد لهجت الدّراسات التي تناولت السّيرة الذاتيّة تنظيريّة كانت أم تطبيقيّة بفكرة العقد السّير ذاتيّ، وركّز الباحثون على تجلّيات هذا العقد ووجهته ومضامينه، وظهرت من هذا الزّخم البحثيّ صلة مّا بين العقد السّير ذاتيّ والصّدق؛ إذ العقد هو "إقرار المؤلّف إقرارا لا لبس فيه بأنّه هو راوي النّصّ وهو الشّخصيّة الرّئيسيّة في القصّة، وما من سبيل إلى ربط علاقة تطابق بين الرّاوي والشّخصيّة الرّئيسيّة والمؤلّف إلاّ استنادا إلى اسم العلم الذي يحيل إلى شخصيّة المؤلّف في غلاف الكتاب" (معجم السّرديّات، 2010، ص261)، العقد إنّما هو "العقدة التي يبرمها المؤلف مع القارئ لغاية التّأكيد على التّطابق بين المؤلّف والبطل والرّجوع بكلّ شيء إلى الاسم الشخصي المكتوب على الغلاف" (محمود، ص22)، وقد ذكر فيليب لوجون أنّ إشكالية السّيرة الذّاتيّة "يجب أن تحدّد في الاسم؛ ففي النّصوص المطبوعة كلّ مسؤوليّة التّلفّظ يتحمّلها شخص تعوّد على وضع اسمه على غلاف الكتاب من فوق وتحت عنوان الأثر؛ ففي ذلك الاسم يلخّص وجود ما يسمّى الكاتب الذي هو العلامة الوحيدة على عنصر خارج عن النّص محيل على شخص حقيقيّ" (Lejeune, 1975, p22-23).

إنّه التزام من صاحب الأثر التّماهي بينه كاتبا وبين شخصيّته وراويه، ووعد صريح ومباشر بالصّدق يتوجّه به الكاتب إلى القارئ كما فعل روسو وطه حسين في مقدمّة كتابهما عندما أشارا إلى سعيهما إلى أن يكون ما يطرحانه للقارئ صادقا لا تشوبه شوائب الكذب أو التزيّد (انظر: حسين، 1999، ص8)، وكما فعل زكي نجيب محمود في تقديمه لسيرته. قال: "لقد حرص الكاتب أشد الحرص على أن يصوّر حياته العلميّة والأدبيّة خلال هذه الفترة الطّويلة في نزاهة يتجرّد بها عن الهوى ما كان ذلك في مستطاع بشر" (محمود، ص5).

لهذا العقد كذلك صور أخرى يتجلّى من خلالها مثل التّطابق الظّاهر بين السّارد والشّخصيّة والكاتب المذكور في صفحة الغلاف، واعتماد ضمير الأنا النّحويّ المحقّق للتّماهي بين هذه الذّوات في العناوين، واعتماد صيغة سيرتي أو حياتي، وحتّى الحديث المباشر إلى القارئ (انظر: هياس، 2001، ص22).

في كلّ الأحوال يمثّل مفهوما الصدق والعقد في السّيرة الذّاتيّة إشكالية نقدّر أنّها أساس للمأزق التنظيريّ الذي وقعت فيه الدّراسات النّقديّة المتّصلة بهذا الجنس؛ فالكاتب قد ينصرف عن تصنيف أثره ضمن هذا الجنس الكتابيّ، ولا يكون صادقا في عرض الوقائع، بل "مهما عمل كاتب السّيرة الذّاتيّة على أن يكون وفيّا لماضيه، ومهما كان حرصه كبيرا على التزام الصّدق والنّزاهة فإنّ الأنا التي يرسم ملامحها ويروي قصة وجودها لن تحيل إلى ذات واحدة معروفة تاريخيّا، بل ستحيل إلى ذاتين على قدر هام من التّباعد والاختلاف" (معجم السّرديّات، 2010، ص262)، ثم إن ظاهرة التّذكّر تجعل هذا الوعد بالصدق وهما وزيفا لأنّ الذّاكرة من سماتها الخيانة، والكاتب "ما أن يشرع في تدوين ذكرياته حتى تخضع تلك الذّكريات لأحكام الكتابة فتتلوّن برؤى الذّات في لحظة التّدوين، وتتشكّل بحسب ما يطرأ على ذهن المؤلّف من أفكار وانطباعات [...]؛ فنحن في السّيرة الذّاتيّة إزاء تحريف مضاعف: الذّاكرة تحرّف الماضي، والكتابة تحرّف الذّاكرة" (معجم السّرديّات، 2010، ص262)، إضافة إلى أنّ الاختيار الذي هو أساس السيرة وأساس الإبداع هو تصرّف في الواقع وبعد عن الموضوعية؛ ولذلك "لا ينبغي أن يُنظر للسّيرة الذاتية كعمل أدبيّ على أنّها مجرّد ترجمة للحقائق الموجودة خارج النّصّ نفسه؛ لأنّ الحقائق هذه وإن كانت سببا في إبداع النّصّ ذاته لم تعد الحقائق نفسها بعد أن اندمجت، وامتزجت، وكوّنت العمل الأدبيّ" (شرف، 1992، ص19-20).

إنّ الصّدق في ذاته مدعاة إلى التّأمّل؛ فنحن لا نرى شيئا صادقا خاصّة إذا أدركنا أنّ علاقتنا بالواقع إنّما هي علاقة تسمية باللّغة تخضع لإكراهات الوضع، والاصطلاح، والرّمز، والتّخييل، وفعلا لم يكن أصحاب السّيرة الذّاتيّة صادقين مع قرّائهم؛ فقد قطع طه حسين بينه كاتبا وبينه شخصيّة مخيّلة، ونفى التّماهي بين الذّاتين، وأعلى الجانب التّخييليّ على الواقع والصّدق، بل تعمّد في بدايات الأيّام طمس كلّ إحالة على التّاريخ. قال: "لا يذكر لهذا اليوم اسما، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشّهر والسّنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه، وإنّما يقرّب ذلك تقريبا" (حسين، 1999، ص15)، وبذلك تنكّب عن الموضوعيّة التي وعد بها في مقدّمة سيرته، ومثل طه حسين تماما فصل زكي نجيب محمود بين ذاته الكاتبة، والمتأمّلة، والمعلّقة على الحوادث، وذاته الرّاوية التي لا بدّ أنّها تنتمي إلى بناء تخييليّ عميق، وذاته موضوعا للتّخييل والتّأمل، وتغاضى عن التّحديدات الزّمنيّة التي تكرّس المظهر الواقعيّ، وجانب الحقيقة والصّدق. قال مثلا: "في هذه المجموعة من الأحاديث اجترار منسّق ومدّبر لحياة أعطت فكرا وأدبا وظلّت تعطي ستّين عاما، ولا يذكر صاحبها يوما أخذها فيه يأس أو ملل" (محمود، 19)؛ فعرضه لسيرته كان منسّقا ومدبّرا، ولم يكن فيه مجال للعفويّة التي يقتضيها الصّدق، وقال: "كان صاحبنا منذ أوائل شبابه طُلعة" (محمود، 20)؛ فانظر إلى تغيّر موقع الشّخصيّة المتحدّث عنها بين أن تكون تاريخيّة وأن تكون تخييليّة، وإلى تغيّر علاقة المتكلّم بها بحيث يكون مؤرّخا لها تارة ومتأمّلا في مسيرتها طورا، بما يكسر قاعدة التّماهي التي تلهج بها الدّراسات حول السّيرة الذّاتيّة.

أمّا ابن خلدون فإنّه وإن حرص على المصداقيّة في ذكر نسبه وتاريخه الشّخصيّ باعتماد ضمير الأنا وبالارتكاز على الإشارات التّاريخيّة والعلامات الواقعيّة فإنّ ثنائيّة الكاتب والشّخصيّة تظهر عنده في بعض الأحيان مثل قوله: "هذا ذكر من حضرنا من جملة السّلطان أبي الحسن من أشياخنا، وليس موضوع الكتاب الإطالة؛ فلنقتصر على هذا القدر، ونرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار المؤلّف" (ابن خلدون، 1979، ص56)؛ ففي هذا الكلام فصل واضح بين ذاتي ابن خلدون، ذاته شخصيّة تاريخيّة مسرودة، وذاته شخصيّة كاتبة آنية، ثمّ إنّ روسو نفسه يقرّ بأنّه يملأ الفراغات بالتّخييل رغم وعده بالصّدق في كلّ ما سيقوله مهما يكن صادما أو مشوّها (Voir : Rousseau, 1998, p34).

الأنا السّاردة في السّيرة إذن هي عنوان المأزق السّيريّ؛ لأنّها "أنا زئبقيّة رجراجة، شديدة التّأرجح والحركيّة، أبديّة البحث عن نفسها، تتماسك أحيانا، وتستسلم لكثافة العالم حتى تصير موجودا حيّا قابلا للتّموقع والتّشكّل، وتستسلم أحيانا للرّغبة الذّاتيّة والطّموح الشّخصيّ في تمثّل أشدّ الحالات خياليّة يسندها اللاّشعور، ويغيب عنها الوعي" (شطّاح، 2015، ص26)، وهذا ما يجعلنا نقطع بضرورة تحرير هذا النّمط الكتابيّ من القيود البحثيّة التي منعته من التّطوّر والتي تعود إلى أنّ كلّ دارس لهذا النّمط يستند إلى تنظيرات لوجون وستاروبنسكي التّأصيليّة بدون إضافة في نوع من التّناول الشّكليّ الوظائفيّ الذي يقدّم التّصوّر العامّ للشّكل الكتابيّ المدروس، ويتجاهل التّعبيرات المخصوصة والتّنويعات على النّموذج.

لقد تبيّن بعد هذا العرض أنّه رغم كلّ الوعود والعقود التي تُبنى عليها السّير الذّاتيّة فإنّنا لا نعتقد أنّ الكاتب يكتب من أجل إثبات حسن النّية، وسعيا إلى المصداقيّة التي يقرّرها ويجسّمها هو وحده وفي قطيعة عمّا يمكن أن يقع للأثر إذا طرح للقراءة. نحن لا نعتقد أنّ الكاتب لا يعطي لقارئه شيئا من مسؤوليّة تحقيق دلالة الأثر، لا نعتقد أنّه يكتب وليس في كتابته مقصد أو مقاصد يقع تحقيقها بتفاعل مّا مع القارئ، ولا نعتقد أنّ كلّ همّ صاحب السّيرة أن يخاتل قارئه بالنّوس ما بين تسجيل الحقائق التّاريخيّة والتعرّي الذّاتيّ الاختياريّ من أجل غايات فنّية محضة ممّا قد يحيل عليه العقد السّير ذاتي، وإنّما نرى أنّ في السّيرة الذّاتيّة، وفي هذه العلاقة المتوتّرة بين الكاتب، ونصّه، ومتلقّيه غايات أخرى يمكن أن تلخّص في معنى التّفاعل والتّواصل؛ ولأجل ذلك نرى أنّ الاكتفاء في الجهاز المفهوميّ المتعلّق بالسّيرة الذّاتيّة بالمفاهيم المألوفة لن يمكّننا من تحقيق إدراك أعمق لدلالات هذا النّمط الأدبيّ المشكليّ، وأنّه آن الأوان لاستبدالها بمفاهيم أخرى تلائم طبيعته وتمكّن من تطوير تمثّلاتنا للأدب ولوظائفه نراها ماثلة في التّداولية وأهم مفاهيمها المقصديّة والعقود التواصليّة التي تكون بين طرفي التّفاعل بالنّص السّير ذاتيّ، الكاتب، والقارئ.

2- في تداوليّة السّيرة الذّاتيّة:

كتب السّيرة الذّاتيّة لا تخرج عن أن تكون نصوصا، آي آثارا تلفّظيّة موثّقة بالكتابة (انظر: فيصل الأحمد، 2010، ص30-31) يتواصل بها أصحابها مع قرّائها المفترضين، ويحقّقون بها جملة من المقاصد التي هي "من خصائص المعرفة والتّداول الإنسانيّ" (Sperber et Wilson,1989, p42) ، كما يكون الأمر في كلّ تداول أداته اللّغة اعتبارا لأنّ كلّ تلفّظ هو عمل لغويّ تجسّم فيه قوى اللّغة المعلومة، قوّة القول، والقوّة المتضمّنة في القول التي تجعل التّواصل مسألة سلوكيّة اجتماعيّة لا لغويّة أو علاميّة، والقوّة التّأثيريّة بالقول، تلك القوى التي ميّزها أوستين عندما جعل أنواع الأعمال اللّغويّة التي يمكن إدراكها في الجملة هي عمل التّلفّظ acte locutionnaire، وهو العمل الذي نُنجزه بمجرّد إنتاج متوالية من الأصوات المنتظمة تركيبيّا، والعمل المتضمّن في القولacte illocutionnaire، وهو العمل الذي يغيّر العلاقات بين المتواصلين كأن نعد بشيء أو نصرّح بأمر، والعمل التّأثيريّ بالقول acte perlocutionnaire، الذي به يكون إيقاع أثر مّا في المتقبّل (انظر: منغنو، 2008، ص8)، وهذه الخصيصة ذات البعد الثلاثيّ للتّواصل الإنسانيّ تجعل العمل الاستنتاجيّ ضروريّا لإدراك المقاصد التي يقع إخفاؤها في عمق الجمل التي تحمل مضمونا قضويّا ظاهرا ليس هو محور التّدلال في عرف التّداوليّة؛ لأنّ التّداول الإنسانيّ "يُعَرِّفُ [...] في جزء كبير منه بأنّه تحديد للسّلوك باعتباره مقاصد أكثر من كونه خاصيّات فيزيائيّة" (Sperber et Wilson,1989, p42-43)، والمقصديّة توجد في النّصوص الأدبيّة كذلك؛ إذ "كلّما تخلّت النّصوص على صرامتها الإخباريّة لفائدة توليد الدّلالات الخفيّة المعبّرة عن وجهات نظر المرسلين كلّما كانت الحاجة ملحّة لدى القارئ للتّخلّي عن المنطق الصّارم في قراءة النّص، واللّجوء إلى ردود أفعاله الفكريّة والنّفسيّة والإيديولوجيّة، وكأنّ بين القارئ والمرسل المفترض نوعا من المقايضة في هذا المجال" (لحمداني، 2003، ص61)، والتّراسل فيها يكون بآثار تحيل إلى ظروف التّلفّظ وتدفع إلى التّأويل، وهكذا "يُغلَى من شأن ظروف التّلفّظ دون بنية اللّفظ الدّلالية على غرار ما يُعلى من شأن المناصّة والمسلّمات التي يضعها المتأوّل موضع الفعل والاشتغال الدّلاليّ في تأويل النّص" (إيكو، 1996، ص54)، وفي الرّسائل النّصّية ذات الوظيفة المرجعيّة كثير من الآثار اللّسانيّة الدّالّة على التّلفّظ مثل المعلومات عن المؤلّف وظروف تلفّظه بنصّه، وبالتالي هي مسوّغة لقراءة تداوليّة لها كما هي حال نصوص السّيرة الذّاتيّة.

حتّى يكون نصّ السّيرة الذّاتيّة واقعا في عمليّة تواصل بين الكاتب والقارئ يجب أنْ يكون قارئه متعاونا، أي يجب "أنْ يكون قادرا على بناء عالم خياليٍّ يهدف النّص إلى بنائه أو إجلائه انطلاقا من علامات تُوَفَّر له" (Maingueneau, 2001, p32). إنّ كاتب السّيرة الذّاتيّة الذي يريد أنْ يجد لأثره جمهورا يهتمّ له ويقبل عليه بالقراءة والفهم والتّفاعل، يجب عليه أنْ يفترض أنّ القارئ سوف يتعاون معه حتّى يتخطّى مواطن الخفاء التي بثّها في مفاصل ذلك الأثر، ولأجل ذلك ذكر إيكو أنّه "يصادر على تعاضد القارئ باعتباره شرطا للتّفعيل" (إيكو، 1996، ص67)؛ فكاتب النّص يهيّئ للتّفاعل بينه وبين المتلقّي القارئ، ومن هنا يعطي لنفسه إمكانية توزيع الدّلالة على طبقات النّص، وبالتّالي ملء نصّه بالمقاصد، وهدف المحلّل هو أن يحدّد في دراسته النّشاط

التّعاونيّ الذي يحمل المتلقّي على أنْ يأخذ من النّص لا ما يقوله وإنّما ما يفترضه، أو يَعِدُ به، أو يتضمّنه، أو يخفيه، وهكذا فإنّه "بمقدور أيّ شخص أنْ يُؤَوِّلَ أيَّ شيء، [... و] لا توجد عبارة سواء كانت قضيّة أو حجّة من الوجهة الحدسيّة إلاّ وتدلّ على النّصوص الممكنة" (إيكو، 1996، ص67).

نقل حميد لحمداني عن إيزر حديثا يلائم ما تقدّم قال فيه: إنّ التّواصل الأدبيّ هو "عمليّة لا يحرّكها، ولا ينظّمها قانون مسبّق، بل تفاعلٌ مفيد، وموسّع، ومتبادل بين المعنى الواضح والمعنى الضّمنيّ، بين الكشف والخفاء. إنّ الشّيء الخفيّ يحرّض القارئ على الفعل، ويكون هذا الفعل مضبوطا بما هو ظاهر، ويتغيّر الظّاهر بدوره عندما يخرج المعنى الضّمنيّ إلى الوجود، وكلّما سدّ القارئ الثّغرات بدأ التّواصل، وتعمل الثّغرات كالمحور الذي تدور حوله العلاقات بين القارئ والنّص ..." (لحمداني، 2003، ص69)، و(انظر: إيزر، 1999، ص8-9).

المتلقّي إذن في مطلق الأحوال لا يكفّ عن طلب المعنى؛ فلا بدّ أنه يطلبه في النّصّ السّير ذاتي، ولا بدّ أنّه لا يهتمّ كثيرا بمسألة الصّدق والكذب أو التّطابق بين الكاتب والشّخصيّة والرّاوي جريا منه وراء الدّلالة التي يتضمّنها النّصّ، كما أنّه وهو يتلقّى الخطابات لا بدّ أنّه يفتح مجاله الذّاتيّ للتّأثير والتّأثّر بينه وبين مشاركه في التّواصل. "هذا النّشاط التّعاونيّ يحمل المتلقّي على ملء المساحات الفارغة، وعلى وصل ما في هذا النّص مع ما بقي فيه من التّناص" (Maingueneau, 2001, p32-33)، غير أنّ القارئ ليس حرّا تماما، لأنّ الكاتب له أن يتدخّل لتوجيهه، ولتصحيح انحرافاته التي يقع فيها إذا اختلى بالنص؛ فيجعل النّصّ مصيدة ينصبها لقارئه لتوريطه في تحمّل مسؤوليّة إنتاج الدّلالة فيه باختيار الاصطلاحات التي تجعله مقروءا بشكل مّا؛ إذ "كلّ نصّ هو آلةٌ كسولة تتوسّل إلى القارئ بأنْ يقوم بجزء من مهامّها" (إيكو، 2005، ص20)، كل نص بما يحدثه الكاتب فيه من تضمين للقرائن النّصّيّة يُدْخِل القارئ في لعبته بشكلٍ يخلق من خلاله أثرا براغماتيّا محدّدا، يُنْجِح عمله اللّغويّ الأكبر، وبشكل تبادليّ يجب على القارئ أنْ يطلب بإلْحاح من المؤلّف أنْ يحترم عددا من القواعد حتّى يمكنه فكّ الشّفرة، ومن مصلحة الكاتب أنْ يراعي ما يمكن أنْ يصدر عن القارئ المفترض حتّى تكتمل شروط اللّعبة التّواصليّة. "لكنّ الكاتب بعلمه أنّ القارئ سينجز هذه الفرضيّة يمكن بالتّأكيد أنْ يستفيد من ذلك حتّى يخيّب الظّن ويُحدث مفاجأة، ولكن خرق الاتّفاق وقطع العقد الضّمنيّ بينهما ليس إلاّ تفعيلا لعقد آخر جامعٍ بين الطّرفين يمكن أنْ نسمّيه العقد التّواصليّ" (Maingueneau, 2001, p34)، أو العقد التّفاعلي، أو التّعاضدي كما يسميه إيكو، وهو يتمثّل في كون الكاتب بهذه الممارسة "يجبر القارئ على محاولة إعادة التّوازن إلى الخطاب بأنْ ينصرف إلى البحث عن دلالة الخرق للقواعد والبنود الضّمنيّة التي خضع لها وأخضع قارئه لها كذلك" (Maingueneau, 2001, p34).

إنّ القراءة يجب عليها أن تُبرز عالما نصّيّا كاملا انطلاقا من علامات متباعدة وخفيّة أو غير واضحة تماما، ومن فراغات قصد الكاتب إلى اعتمادها حتى يحفّز قارئه على التّفاعل التّأويليّ المرجوّ؛ فالغرض الذي يقصد إليه الكاتب يقصد إليه مع من يشاركه التّواصل، ولذلك "ينبغي أنْ يكون نتيجةً للحدث التّواصليّ" (خطّابي، 1991، ص53)، ونحن "لا نستطيع إلاّ أنْ ندهش من النّصيب الهامّ من العمل المتروك إلى القارئ" (Maingueneau, 2001, p28) الذي هو بحسب إيكو مثل "مجموعةِ ظروفِ نجاحٍ، أو سعادة محقّقة نصّيا يجب أنْ تتحقّق حتّى يكون النّص محيَّنا بكلّيته في سياق الممكن" (Eco, 1992, Lector, p80).

هكذا يؤسّس تناول النّصّ عموما والنّصّ السّير ذاتيّ على عدد من عمليّات تفسير وشرح يقبل عليها القارئ استنادا إلى هذه التّفاعليّة بين طرفي التّواصل به، ولأجل ذلك أكّد كثيرٌ من الباحثين أنّ تناول النّصّ ليس عمليّة بسيطة، وإنّما هو عمليّة ذهاب وإياب بين المستويين الذين قُدَّ منهما، أي لغته التي بُنِي منها ودلالتها القضويّة الظّاهرة، والمعنى الخفيّ المضمّن في تلك الأقوال، ويكون الانطلاق دائما من المستوى الظّاهر من أجل الوصول إلى الباطن، وهذا هو معنى التّأويل الذي هو جهد فكريّ يُقبل عليه القارئ ويكرّس به تلك الحوارية النّصّية التي تحدّثنا عنها، و"ليس التّأويل عملا آليّا، إذْ يجب أنْ يُبيّن شيء مّا داخل النّص أو خارجه أنّ المعنى الفوريّ غير كافٍ، وأنّه يجب أنْ يُعتَبر فقط نقطة البداية لبحثٍ تكون نهايته معنى ثان" (Todorov, 1978, p92)، والتّأويل لا ينفي قراءة نسقيّة للنّص؛ فعبر المرور من التّجسيم الخطّيّ للنّصّ "يَملأ المتلقّي [هذا] النّص بالمعنى" (Eco, 1992, Les limites, p80)، وقد عمّق إيكو هذا التّصوّر لطريقة التّفاعل مع النّصّ فحدّد مستويات التّعاضد النّصّي الذي يكون بين الكاتب والقارئ؛ فرأى أنّ "اللّعبة التّعاضديّة حول فاعل التّلفّظ، وأصله، وطبيعته، ومقاصده لا تبلغ ذروة تعقيدها إلاّ إزاء نصّ مكتوب؛ إذن في هذه الحالة فحسب تصير القرارات الواجب اتّخاذها رهنا بعلاقة تفاعليّة بين كلّ المستويات النّصّية الأخرى" (إيكو، 1996، ص95)، أما الوجوه الإجرائيّة للفهم فلا تخرج عن أنْ تكون طلب عمق النّص من خلال مداخل تلخّص في: التّجلّي الخطّي للغة النّص، وأنماط الأسلوب فيه، وسيناريوهات الاستدلال المشتركة عند الكاتب والقارئ، والبنية التّناصّية داخل النّصّ ، وظروف التّلفّظ به، والقرائن العائدة به إلى مقام نشأته، والمعارف الموسوعيّة التي يقترحها والتي تكون في أذهان الأجهزة التّواصليّة به، ومن ضمنها القناعات، والمنظورات الإيديولوجيّة، وأشكال التّرميز (انظر: إيكو، 1996، ص85-106) ممّا هو من السياق المعرفيّ الذي"لا يحتوي فقط المعلومات حول المحيط المادّيّ الآني أو حول الملفوظات السّابقة، فالتّوقّعات والافتراضات العلميّة والاعتقادات الدّينيّة والذّكريات والقناعات الثّقافيّة والفرضيّات حول الحالة الذّهنيّة للمتكلّم كلّها قادرة على لعب دور في التّفسير" (Sperber et Wilson,1989, p31)، وممّا أشبه بالخبرة الفكريّة والنّفسيّة التي تكون لدى المنخرطين في التّواصل، والتي بغير وجودها يعجز المتلقّي عن إدراك مقاصد الخطاب ويعجز المتكلّم عن نقلها إليه أو توجيهه إلى مواطنها فيه فـ"يظهر إذن أنّه من المرغوب فيه في مرحلة أولى، وبعد تحديد المعنى الحرفيّ للنّص أنْ يهتمّ القارئ بما وراء النّص، ويدعو معارفه التّاريخيّة والاجتماعيّة الثّقافيّة والفلسفيّة والدّينيّة من أجل فهم الأطر والشّخصيّات والأعمال والدّلالات" (Argod-Dutard, 1998, p10).

كانت تلك الأسس النّظريّة لطرحنا حول تداوليّة السّيرة الذّاتيّة، وسنحاول إجراءها على نماذجنا المختارة.

2-1- المقاصد السّيرذاتيّة، عند طه حسين وزكي نجيب محمود و ابن خلدون:

لا يمكننا تجاهل تعريف فيليب لوجون، الذي أثبتناه في بداية هذا العمل للسّيرة الذّاتيّة، والذي رأى فيه أنّها قصّة تذكّريّة نثريّة، وشخصيّة، ولها بعد واقعيّ، وتوجّه ذاتيّ (Voir : Lejeune, 1975, p14)، بل من الواجب الاستناد إليه حتى تُدرك مقاصد هذا النّوع من الكتابة؛ فإذا كانت السّيرة الذّاتيّة فإنّ فيها الذّات، وفيها التّاريخ، وفيها القصّ، وإنّ لكلّ وجه من هذه الوجوه أثرا في المقاصد التي يسعى هذا النّمط الكتابيّ إلى تحقيقها عندما يطرح مادة تواصليّة بين الكاتب والقارئ.

إذا كانت السّيرة الذّاتيّة مؤسّسة على فكرة عرض التّاريخ الشخصيّ، وعلى مبدأ الانتقاء فإنّ الانتقاء عادة هو التقاط للوقائع ذات البعد الملحميّ الدّال على بذل الجهد في مواجهة مصاعب الحياة والانتصار عليها، وهذا توجّه إنسانيّ بحت مؤسّس على ما رُكّب في نفس الفرد من رغبة في الظّهور وتوق إلى إظهار البطولة والتفوّق، وليست هي فقط مجرّد تعبير نتج عن التّحوّلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي عاشتها أوروبا والتي أنتجت صعود الفرديّة الرّومنطيقيّة كما قرّر ذلك شكري المبخوت (انظر: المبخوت، 1992، ص21-22). قال طه حسين: "هذا حديث أمليته ... لأتخلّص بإملائه من بعض الهموم الثّقال والخواطر المحزنة التي كثيرا ما تعتري النّاس بين حين وحين" (حسين، 1999، ص7)؛ فأكّد المظهر النّفسيّ الانفعاليّ لعمل كتابة السّيرة الذّاتيّة، وكذلك تحدّث زكي نجيب محمود عمّا يعتمل في نفسه من الانفعالات المتّصلة بالمرحلة العمريّة التي يمرّ بها، وبما كان له من العلاقات والآثار التي أوقعتها في نفسه (انظر: محمود، ص6) ؛ فتأكّد لدينا أنّ الدّافع إلى كتابة السّيرة الذّاتية إنّما هو نفسيّ بالأساس، وأنّ علاقتها بالمحيط الموضوعيّ واهية نوعا مّا.

عرض التّجربة الشّخصيّة هو إظهار المجاهدة من أجل النّجاح، وهذا على ما نرى أمر مركزيّ في السّيرة الذّاتيّة وإن شذّ بعض أصحاب أدب الاعترافات مثل روسو الذي كان شجاعا في كشف كثير من الأسرار التي تثير الرأي العام القرائيّ والاجتماعيّ. لنقل إنّ المقصد الأوّل للسّيرة الذّاتيّة إنّما هو مقصد الإعلام الفخريّ بتجربة الكفاح من أجل الانتصار، والتّقدّم، والتّغلّب على العوائق والعراقيل، وليس مهمّا هنا أن نبحث في الصّدق، أو الواقع، أو الخيال في هذه الكتابات لأنّ هذه المسائل لا تضيف إلى الدراسة شيئا مهمّا، ثم لنعلم أنّ المعنى الملحميّ هذا يبثّ في الفراغات التي على سطح النّصّ والتي يُدعى القارئ إلى ملئها بما بينه وبين الكاتب المتعامل معه بالخطاب النّصيّ الذي أصبح سندا من أسانيد التّواصل بينهما، وبما ينهض له من أشكال التّعاضد التّأويليّ بينه وبين الكاتب على أساس ما يشتركان فيه من السّياقات التّاريخيّة طبعا والفكريّة، أي جملة القناعات والمسلّمات والافتراضات الأوّليّة التي يتأسّس عليها التّواصل والتي أهمّها حاجة المتعلّم إلى النّماذج النّاجحة للتّعلم، وحاجة العامل المجتهد نفسه إلى التّعبير عن دواخله ووجدانه، وعن إحساس السّعادة التي تستبدّ به بما حقّقه من نجاح، كما يبثّ في أشكال الانزياح التي يتعمّدها الكاتب في أثره كالمشاهد، وأنواع السّخرية، والرّمز، وما إلى ذلك من أشكال القول الكثيف.

يقع التّعبير عن المقاصد ذات البعد الفخريّ عادة بالتّركيز على الجوانب التّاريخيّة لمسيرة الكاتب، وعلى عمليّة الانتقال والتّجاوز للعوائق والصّعوبات، وينفتح هذا التّعبير على السّياق العامّ الذي حدث فيه هذا الانتقال البطوليّ من حالة خمول الذّكر إلى حالة النّصر، وهذا السّياق العامّ لا بدّ أن يكون قريبا من الكاتب أو بعيدا عنه متّسعا؛ فهو إمّا العائلة بكلّ دلالاتها العلائقيّة والوجدانيّة والقيميّة وأحوالها المادّية والاجتماعيّة، وإمّا المجتمع بكلّ خصائصه المادّية والفكريّة والعلائقيّة والقيميّة، وطبيعيّ أن تلقي ملحمة الكاتب أو البطل بظلالها على هذا السّياق العامّ فتكون ملحمته عمل التّجاوز لأشكال النّقص والقصور سواء في الذّات، أو في العائلة، أو في المجتمع كما كان الأمر عند طه حسين في كتابه الأيّام، ذلك الكتاب الذي جعله الكاتب على ثلاثة أجزاء خصّص الجزء الأول منها لحياته في العائلة وأوان التّحصيل الأوّل الأساسيّ في الكتّاب، وخصّص الثّاني لحياته الأزهريّة في القاهرة وخصّص الثالث لحياته الجامعيّة في القاهرة وفي فرنسا، ووازى بين ذاته وهذه البيئات فضخّم المظهر الملحميّ لسيرته، والذي سعى به إلى ترسيخ فكرة مواجهته للتّخلّف مهما تكن مظاهره مادّية كانت أم فكريّة أم دينيّة أم اجتماعيّة، وكما كان الأمر عند زكي نجيب محمود في كتابه حصاد السّنين؛ إذ يؤكّد الكاتب هذه المواجهة للتّخلّف الاجتماعيّ والفكريّ عندما يتحدّث عن ثبات حياة النّاس في زمن صباه وشبابه وعن الانحطاط القيميّ والفكريّ النّاتج عن رسوخ الفكر التقليديّ (انظر: محمود، ص27)، والنّاظر في أثر طه حسين يصادف فقرا كثيرة تعبّر عن هذه الملحمة ذات المشارب المتعدّدة التي انخرط فيها الكاتب بعرض المشاهد الحركيّة أو الفقر الوصفيّة الموجّهة إلى هذا الخلل يواجهه الكاتب البطل، وينتصر عليه، ويتجاوزه، أو يعارضه، ويستهين به، ويشوّهه تشويها، يتهامل معه بأشكال ردود الفعل من سخرية، وغضب، ومرارة، وسخرية، وغير ذلك.

هذه المقصديّة الملحميّة تتكثّف عادة إذا كان الكاتب معانيا نقصا مّا في الماضي، أو إذا كان السّياق الاجتماعيّ والفكريّ غير ملائم لأفكاره، أو معارضا، أو معاديا لها، وطبعا تطغى هذه الجوانب النّضالية لتقدّم شخصيّة عابرة للزّمن، عابرة للعوائق، دافعة إلى الرّقيّ بالذّات والمجتمع والفكر كما هو الحال عند طه حسين الذي يقول في مقدّمة الأيّام: "وقد تأثّر [الفتى] بهذه المحنة [العمى] تأثّرا عميقا قاسيا [...] والحمد لله على أنّ هذا الصّبيّ لم يستسلم للحزن ولم تدفعه ظروفه إلى اليأس، وإنّما مضى في طريقه كما استطاع أن يمضي محاولا لنفسه وللنّاس [...]، وما أكثر الذين قهروا هذه المحنة خيرا ممّا قهرها وانتصروا عليها خيرا ممّا انتصر عليها" (حسين، 1999، ص9)؛ فهو جمع بين المظهرين في كتابه الأيّام، تجاوز عجز الذّات، وقاوم وهن المجتمع، وعبّر عن ذلك في مشاهد معلومة في أثره تكثّفت فيها العناصر الانفعاليّة الوجدانيّة متى تعلّق الأمر بتجاوز عوائق الذّات، والعناصر الصّداميّة متى تعلّق

الأمر بمقاومة انحطاط المجتمع والفكر، وملاحظ في كتاب الأيّام الحضور الكثيف لألفاظ الصّراع والعنت والجهد والشّدّة التي ألحقها الكاتب بذاته صبيّا يعمّق بها الصّورة البطوليّة التي ارتضاها لنفسه وخاطب بها قارئه قاصدا إعلامه بها ونقلها إليه فخرا بإنجازه الفريد.

ابن خلدون كذلك بثّ في أثره إشارات إلى ما تحلّى به من رغبة تطوير الذّات، وإلى ما واجهه من العنت والجهد في الحفاظ على مركزه في دوائر السّلطة؛ فأكّد الصّورة البطوليّة لمسيرته، والقصد الملحميّ الذي أراد تحقيقه من كتابتها وتوثيقها. قال مثلا: "لم أزل منذ نشأت وناهزت مكبّا على تحصيل العلم، حريصا على اقتناء الفضائل، متنقّلا بين دروس العلم وحلقاته" (ابن خلدون، 1979، ص57)، وقال: "ثم ولاّني آخر الدّولة خطّة المظالم فوفّيتها حقّها ودفعت للكثير مما أرجو ثوابه ولم يزل ابن مرزوق آخذا في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدّولة غيرة ومنافسة" (ابن خلدون، 1979، ص79).

أمّا عند زكي نجيب محمود فتتكثّف المقصديّة الملحميّة في محاولة تجاوز قصور الثّقافة والفكر في السّياق الاجتماعيّ والتّاريخيّ الذي عاش فيه، وقد أعلن الكاتب هذا الأمر ظاهرا لا لبس فيه في بداية حديثه الأوّل الموسوم بتغريدة البجع. قال: "في هذه المجموعة من الأحاديث اجترار منسّق ومدبّر لحياة أعطت فكرا وأدبا [...]، ولا يذكر صاحبها يوما أخذها فيه يأس أو ملل، ولم يكن ليلومها لو قعد بها القنوط؛ فهي حياة بشريّة يعتورها ضعف الغرور الذي يوهم الإنسان آنا بعد آن أنّه يستطيع لو جدّ وأجاد أن ينتزع المجد انتزاعا ولو كره المخالفون" (محمود، ص19).

إذا حدث أن سعى الكاتب إلى تحقيق هذا القصد الملحميّ من التّواصل بالنّص السّير ذاتي فإنّه يضمّن فيه قصدا تابعا هو قصد التّأثير في المتلقّي من أجل تبنّي قيمه التي قوّت نفسه على الصّراع، وساعدته على تحقيق النّصر، وهذا القصد ليس إلا قصد التّربية، والتّعليم، والتّوجيه يقدّم فيه الكاتب نفسه معلّما، وموجّها صاحب خبرة بالزّمن، والنّاس، والمجتمع. قال طه حسين: "وأنا أتمنّى أن يجد الأصدقاء المكفوفون في قراءة هذا الحديث تسلية لهم عن أثقال الحياة كما وجدت في إملائه، وأن يجدوا فيه بعد ذلك تشجيعا لهم على أن يستقبلوا الحياة مبتسمين لها كما تبتسم لهم ولغيرهم" (حسين، 1999، ص10)، ولعلّ السّيرة الذّاتية في مطلق الأحوال تتأسس على هذا المقصد الأبعد؛ لأنّ الإنسان لا يكفّ عن أن يكون موجّها، ومعلّما، كما أنّه لا يكفّ عن أن يكون طالب معرفة، وباحثا عن الخبرة يقتنصها حيث وجدها، وحقّا فإنّ طه حسين لم يبخل عن النهوض بهذه الوظائف في كتابه الأيّام بشكل ظاهر قبل الشّكل الضّمنيّ، ودليلنا على ذلك ما أنهى به الجزء الأول من الأيّام حين خاطب ابنته ملخّصا مسيرة ما يسمّيه أباها، وباثّا المعاني الدّالّة على مقصده التّوجيهيّ والاعتباريّ (انظر: حسين، 1999، ص117)، وبهذا الشّكل تكون السّيرة الذّاتيّة مجسّمة لحالات الإنسان في المجتمع والوجود، ولا نعتقد أن قصر التّناول فيها على مسائل الجنس الأدبيّ والبنية النّصّيّة وطبيعة الخطاب إن كان صادقا أو كاذبا يغنيها.

المقصد الثّاني للسّيرة الذّاتيّة هو المقصد التّوثيقيّ التأريخيّ ويتحقّق إذا اتخذت السّيرة صورة الشّهادة كما هو حال كتاب التّعريف بابن خلدون الذي "دوّن بحكم قربه من ذوي السّلطان ومعايشته لواقع سياسيّ مضطرب بعض ما شاهد" (المبخوت، 1992، ص25)، والذي جعل سيرته مليئة بالتّفاصيل التّاريخيّة والعلامات الموضوعيّة من أسماء أعلام، وإشارات زمنيّة، وأماكن، ووقائع حتّى لكأنّه يمارس فعل التّأريخ الذي تعوّده واختصّ به، ولكنّه يمارسه جاعلا ذاته محور الوقائع ومركز الحقائق؛ فالكاتب مؤرّخ يتّخذ للتّاريخ مركز إدراك مختلف هو ذاته.

أمّا إذا أخذنا السّيرة الذاتيّة باعتبارها قصّة فإنّنا نرى أنّ للكاتب حتما تصوّرا مخالفا للقارئ، وأنّ له في النّصّ مقاصد مغايرة يدعو القارئ إلى التّفاعل معه من أجل تحقيقها؛ فهو بالطبع سيخاطب وجها من القارئ يفهم الفنّ والأدب، ويدرك أنماط التّأليف وأجناس الكتابة، وله علم معقول بخصائص الخطاب القصصيّ، ويطلب حتما أن يتحقّق له شيء مّا من قراءة الآثار القصصيّة عموما، وهذا الشّيء إنّما هو لذّة التّلقّي وسعادة الالتقاء بالأثر الفنّيّ؛ فإذا رأى منه هذا الجانب فإنّ القصد يصبح تأكيد القدرة الإبداعيّة، ومحاولة الانضواء بهذه القدرة في جملة المبدعين؛ فيتلاعب الكاتب بالحدث، ويتفنّن في طرق العرض، ويقدّم الفقر الحسان ينفق فيها الجهد من أجل الإقناع بهذه القدرة، ولعلّ المثال الأوفى لهذا الإقبال على الخلق الفنّيّ باللّغة ما أنتجه طه حسين الذي لم يترك فرصة تمرّ دون أن يقدّم فقرة أو مشهدا يجسّم فيه قدراته الإبداعيّة بالسّرد في مطلق تجلّياته إن كان سردا للأعمال، أو سردا للأقوال، أو خاصّة سردا للأحوال؛ فقد أبدع الكاتب في ذكر سيّده وشيخه في الكتّاب مثلا (انظر: حسين، 1999، ص24-25)، كما أبدع في عرض أحاسيسه وهو في الطّور الثّالث من أطوار مسيره بين مسكنه والأزهر في القاهرة وهو طور الدخول إلى الأزهر، والاطمئنان إلى علومه، والحلم بأن يكون له دور فيه يماثل دور شيوخه (انظر: حسين، 1999، ص136).

في الحقيقة يتفاوت الكتّاب في مدى إقبالهم على تحقيق هذا القصد من الفعل الكتابيّ بحسب تفاوتهم في القرب من الموضوعيّة أو البعد عنها، ولكنّ حدث الكتابة نفسه، وعمل السّرد ذاته يجعلان أعمالهم مدرجة في باب الفنّ عموما، ويجعلان المقصد من عرضهم لتاريخهم الشّخصيّ تذكّرا هو مقصد إثبات القدرة الفنّيّة والأدبيّة، مقصدا أدبيّا بيّنا، وموجودا حتما عند ابن خلدون وعند زكي محمود وإن بشكل أقلّ بروزا.

خاتمة:

ندرك ممّا تقدّم أنّ تناول الآثار السّير ذاتيّة بوجهة النّظر التّداوليّة هذه، والتّركيز فيها على المقاصد التي لا تتحقّق إلاّ بما يكون من التّفاعل بين طرفي التّواصل بالكتابة له عدد من الفضائل؛ إذ هو:

يطوّر البحث في هذا الجنس الأدبيّ عبر مقاربة ترتكز على المعنى بعد أن كان مسيّجا بحدود بنيويّة شكليّة يسعى النّقد الحديث إلى تخطّيها، وقد تبيّن

لنا ذلك من قراءة بعض مفاصل سير طه حسين، وزكي نجيب محمود، وابن خلدون.

هذا الأمر يدفعنا في دراسة الأدب إلى تجاوز النّظريّات النّسقيّة التي سادت طويلا وحكمت بانقطاع كلّ صلة ما بين الأثر الفنّيّ، وصاحبه، وقارئه، وسياقاته، إلاّ صلة الفنّ، والإبداع، والتّعجيب، وإلى الاتّجاه إلى البحث فيه عن الدّلالة التي هي مشغل اللّغة بكلّ تجلّيات تحقيقها سواء في الكلام العاديّ أو الكلام الأدبيّ، والتي هي في كلّ الأحوال ذات طبقات لعلّ أهمّها وأكثرها تأثيرا تلك الطّبقة الثّاوية في عمق الخطاب، والتي يقصد إليها عادة مستعمل اللّغة مهما كان وجه استعمالها، ومتلقّي الخطاب عبر نوع من التّعاضد على الفهم.

من أهم المقاربات التي تمكّننا من تطوير نقد الأدب المقاربة التّداوليّة السّياقية التي نسعى إلى إرساء نمط تطبيقيّ لها يستلهم الكمّ الهائل من النّظريّات، والقوانين، والرّؤى التي بقيت مفتقرة إلى التّطبيق والممارسة النّقديّة الفعليّة، ودراسة السّيرة الذّاتيّة من هذه المنطلقات هو مدخل إلى تطوير الدّرس الأدبيّ عموما.

المصادروالمراجع

حسين، ط. (1999). *الأيام في مجلد واحد*. ط1. القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.

ابن خلدون، ع. (1979). *التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا*. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

محمود، ز. ن. (2005). *حصاد السنين*. ط2. القاهرة: دار الشروق.

الأحمد، ن. ف. (2010). *التفاعل النصي، التناصية، النظرية والتطبيق*. ط1. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

إيزر، ف. (1999). *التّفاعل بين النصّ والقارئ*. ترجمة الجلالي الكدية. مجلّة دراسات سيميائيّة أدبيّة لسانيّة. العدد7.

إيكو، أ. (1996). *القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية*. ترجمة أنطوان أبو زيد. الدار البيضاء. بيروت: المركز الثقافي العربي.

إيكو، أ. (2005). *6 نزهات في غابة السّرد*. ترجمة سعيد بنكراد. ط1. الدّار البيضاء. بيروت: المركز الثّقافي العربي.

خطّابي، م. (1991). *لسانيات النّصّ، مدخل إلى انسجام الخطاب*. ط1. بيروت. الدّار البيضاء: المركز الثّقافي العربي.

شرف، ع. (1992). *أدب السّيرة الذّاتيّة*. القاهرة: الشرّكة المصريّة العالميّة للنّشر. بيروت: مكتبة لبنان.

شطاح، ع. (2015). *التخييل الذاتي، محاولة تأصيل*. دمشق: مجلة الآداب العالمية.

لحمداني، ح. (2003). *القراءة وتوليد الدّلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي*. ط1. الدار البيضاء. بيروت: المركز الثقافي العربي.

المبخوت، ش. (1992). *سيرة الغائب سيرة الآتي، السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين*. تونس: دار الجنوب للنشر.

معجم السرديات. (2010). تأليف مجموعة من الباحثين بإشراف محمد القاضي. ط1. مجموعة من الناشرين.

منغنو، د. (2008). *المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب*. ترجمة محمد يحياتن. ط1. بيروت: الدار العربية للعلوم. الجزائر: منشورات الاختلاف.

موشلر، ج. وريبول، آ. (2010). *القاموس الموسوعي للتداولية*. ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب. تونس: دار سيناترا.

هياس، خ. ش. (2001). *سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات*. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

References

Argod-Dutard, F. (1998). *La linguistique littéraire*. Armand Colin.

Eco, U. (1992a). *Lector in fabula*. Bernard Grasset.

Eco, U. (1992b). *Les limites de l'interprétation*. Bernard Grasset.

Lejeune, P. (1975). *Le pacte autobiographique*. Seuil.

Maingueneau, D. (2001). *Pragmatique pour le discours littéraire*. Nathan.

Rousseau, J.-J. (1998). *Les confessions*. Pocket.

Sperber, D., & Wilson, D. (1989). *La pertinence* (A. Gerschenfeld & D. Sperber, Trans.). Minuit.

Augustin, St. (1909). *The confessions of St. Augustin* (E. B. Pusey, Trans.). P. F. Collier and Son.

Todorov, T. (1978). *Symbolisme et interprétation*.

Al-Ahmad, N. F. (2010). *Textual interaction, theory and application* (1st ed.). Authority General Palaces of Culture.

Al-Mabkhout, S. (1992). *Biography of the absent biography of the coming: Autobiography in the book of days by Taha Hussein*. South Publishing House.

Argod-Dutard, F. (1998). *Literary linguistics*. Armand Colin.

Augustin, St. (1909). *The confessions of St. Augustin* (E. B. Pusey, Trans.). P. F. Collier and Son.

Dictionary of Narratives. (2010). Authored by a group of researchers under the supervision of M. Al-Qadi (1st ed.). A Group of Publishers.

Eco, U. (1992). *Lector in fabula*. Bernard Grasset.

Eco, U. (1996). *The reader in the tale: Interpretive synergy in narrative texts* (A. Abu Zaid, Trans.). Arab Cultural Center.

Eco, U. (2005). *Six walks in the forest of narrative* (S. Benkrad, Trans.; 1st ed.). Arab Cultural Center.

Hayas, K. S. (2001). *Jabra's autobiography in the first well and princesses street*. Arab Writers Union Publications.

Hussein, T. (1999). *The days in one volume* (1st ed.). Al Ahram Center for Translation and Publishing.

Ibn Khaldun, A. R. (1979). *Introduction to Ibn Khaldun and his journey in west and east*. Dar Al-Kitab.

Iser, W. (1999). *The interaction between text and reader* (A. Al-Kadiyya, Trans.). *Journal of Semiotic Literary Linguistics Studies*, Issue 7.

Khattabi, M. (1991). *Text linguistics: Introduction to discourse coherence* (1st ed.). Arab Cultural Center.

Lahmdani, H. (2003). *Reading and generating meaning: Changing our habits in reading literary texts* (1st ed.). Arab Cultural Center.

Lejeune, P. (1975). *The autobiographical pact*. Seuil.

Mahmoud, Z. N. (2005). *Harvest of the years* (2nd ed.). Dar Al-Shorouk.

Maingueneau, D. (2001). *Pragmatics for literary discourse*. Nathan.

Maingueneau, D. (2008). *Key terms for discourse analysis* (M. Yahyaten, Trans.; 1st ed.). Arab House for Sciences; Ikhtilaf Publications.

Muschler, J., & Ripoll, A. (2010). *The encyclopedic dictionary of pragmatics* (Trans. by a group of professors and researchers under the supervision of E. Majdoub). Dar Sinatra.

Rousseau, J. J. (1998). *The confessions*. Pocket.

Sharaf, A. A. (1992). *Autobiographical literature*. Egyptian International Publishing Company; Lebanon Library.

Shatah, A. (2015). *Self-imagination: An attempt to root*. World Literature Magazine.

Sperber, D., & Wilson, D. (1989). *Relevance* (A. Gerschenfeld & D. Sperber, Trans.). Minuit.

Todorov, T. (1978). *Symbolism and interpretation*.